موت صاحبها ، على نحو ما صنعه أبو نواس في هجومه على الرمزو والموروث من خلال صيغته التهكمية الساخرة التى قصد فيها إلى ما وراء ظاهر الألفاظ ، على نحو اتهامه للعربي بالشقاء والتعاسة والغباء فى مثل قوله :

عاج الشقى على رسم يسائلـــــه وعجت أسأل عن خمارة البلـــــد

أو قوله :

قل لمَنْ يبكي على ربـــــع دَرَسْ واقفا ماضر لو كان جلـــــس؟

وغير ذلك كثير جدا من الشواهد التي يزدحم بها ديوانه على الصعيد النظرى ، مما راح أبو نواس نفسه ليهدمه حين يلجأ إلى التراث فى أكثر من موقف ، فإذا به يقع فيما حذَّر منه حتي فى حديثه عن الطلل على نحو قوله :

يادار ما فعلت بك الأيـــــام ضامتك والأيام ليس تضـــــام
عزم الزمان على الذين عهدتهـــم بك قاطنين وللزمان عـــــرام
أيام لا أغشى لأهلك منـــــزلا إلا مراقبة على ظـــــلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهـــم وأسمت سرح اللهو حيث أسامـــوا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابـــــه فإذا عصارة كل ذاك أثـــــام[1]

وكأنا بالشاعر يتساءل ، ويجيب ، ويهاجم ، ويدافع ، وإذا هو الخصم والحكم في قضية لاتراها - ولعله أيضا لم يرها - إلا خاسرة فى نهاية المطاف لأنه يبدو معتديا على تراثه منذ افتعل معه معركة فى غير معترك حقيقى على المستوى الفنى .

وبذا يبدو وارداً فى حركة تاريخنا الأدبى أن حركات العنف التى أعلنت عداءها للتراث لم تصمد طويلا ولم تنفصم عنه مطلقا بل سرعان ما لجأت إليه بعد أن حكمت على نفسها بالأفول أو الفشل . ربما بسبب من هذا التنكر ، وربما بسبب من تلك الدوافع غير الفنية التى كمنت من وراء تلك الحركات المتمردة ، ودليلنا في ذلك ما ظهر فى نفس العصر من حركات أخرى بدت أقرب إلى الجادة ، وأصدق فى تصوير النوايا ، وتمثيل القدرة على التأثير في حركة الفن ، فإذا بها تقرر ضرورة استناد العمل الجديد إلى تراث أصيل لا يجب التحامل عليه ، بل يجب الاعتراف به ، ولكنها تضيف إليه - ومن خلاله - الكثير من نتائج عبقريات

(١) ديوان أبى نواس ٥٧٥ .